عرس الدم الفلسطيني

لم تختلف نهاية غسان كنفاني عن بدايته الا بمدى ما تختلف مراحل تطور ماساة الانسان الفلسطيني . ولا تتصل نهاية غسان كنفاني ببدايته الا بمدى ما تتصل حلقات هذه المراحل . من هنا ، لا تكون هذه النهاية قفزة أو تحولا وانما هي تسلسل طبيعي بكل ما تحمله الكلمة من دقة وفجيعة .

ذلك ، لان غسان كنفاني الذي هو رمز مكثف لالتحام ما يحمله من وجوه التعبير والممارسة ، كان منسجما كل الانسجام مع نفسه التي هي قضيته ووطنه في آن واحد . وكان متطابقا مع ما يمثله من سلوك وكلمة . ومن هنا أيضا ، سيجد الدارسون صعوبة واضحة في محاولة تصنيف شخصيات غسان كنفاني ، لان فصل الواحدة عن الاخرى قد يؤدي الى عملية قتل . لان غسان كان واحدا لا يتجزأ مهما تعددت ظواهره ومظاهره التعبيرية . وهذه الحقيقة النادرة في تاريخ ممارسة الكتابة العربية الحديثة هي ، بحد ذاتها ، ما تعطي غسان كنفاني هذا الحجم الذي يفجر حياته القصيرة ويتجاوزها . انه شبيه بالينبوع الذي لا يتسع مجرى النهر لغزارة مياهه ، فيفيض جداول فرعية توهم الناظر اليها بانها مختلفة . وهي ليست سوى أشكال متعددة لجوهر واحد .

عاش غسان كنفاني حياة قصيرة ، ولكنها عريضة كما يقولون . ولم يكن ابنا بارا لشعبه ووطنه بالمفهوم الاخلاقي للكلمة فحسب . ولكنه كان ابنا بارا لشعبه ووطنه بالمفهوم الابداعي للكلمة أيضا . ما اختار مصيره وبدايته ، ولكنه اختار الالتزام الابداعي بتطوير هذا المصير ، فكان من الرواد الاوائل للارهاص الوجداني والفكري بميلاد الشخصية الفلسطينية الجديدة . وهي الشخصية المقاومة . لم يجهض هذه النتيجة الحتمية بتكهنات مترفة . فقد رافق الشخصية الفلسطينية — وهي هو على السواء — منذ مرحلة التمزق الاولى ، الى مرحلة التشرد والضياع ، الى مرحلة الذل والابادة ، حتى مرحلة المقاومة والموت . لم تكن غربته شخصية ، فالتمزق الراهن ناتج عن تمزق آخر — هو تمزق الوطن . وهكذا توحد السعي نحو التئام الشعب الفلسطيني مع السعي نحو التئام الوطن . وكان غسان كنفاني — الفلسطيني حتى النخاع — من رواد الباحثين الاكثر أهمية عن تجميع ملامح هذه الهوية الفلسطينية التي أن تلتئم ما دامت لاجئة . من هنا ، يصبح التمرد على صيغة اللاجيء هو مفتاح امكانية العودة . كيف يكون هذا التمرد ؟ الموت واقع لا ينجو منه الفلسطيني ، ولا يملك ازاءه اختيارا . ولكن بوسعه ان يختار طريقته الخاصة في الموت . وهكذا عثر غسان كنفاني — الفلسطيني والفنان — على صيغة الفلسطيني المقاوم ، صاحب الماضي العريق في المقاومة ، ثم تجسدت فكرة المقاومة بالكائن البشري الذي يمارسها وهو الفدائي .

لم يكن غسان كنفاني صبورا ، فمن وصل ساحة الموت لا يتحلى بالصبر . ان شراهة الحياة تجعله كالعاصفة .. مندفعا ومتفجرا على الدوام . ووصف المقاومة والفداء ليس صفة غسان . انخرط في الممارسة النضالية وسط شعبه ، وهنا ، أيضا حقق التطابق الرائع بين حركتين أو بين ثوريتين — حركة مضمون الادب الثوري والممارسة الثورية . فكان نموذجا لتلاحم من طراز فريد . يتساءل النقاد والادباء عن دور الاديب ازاء كل